قـــــتـل الـذائـقـــــــة!

إبراهيم صموئيل

أَعْلم أنّ سؤالَ أيِّ مثقفٍ عن موقفه من الحرب، أيِّ حرب، يميل بالسائل إلى الاعتقاد بتضمُّن الإجابة الرفضَ والاستنكارَ الصريحيْن. لكأنَّ ممارسة الأدب والفكر والكتابة تقوم على نبذِ الحرب، أيِّ حربٍ، ومعاداتِها على الدوام، لِما تعنيه من قتلٍ ودمارٍ وتشريدٍ وآلامٍ لا تحصى.

ولكنْ ما العمل إذا كانت المعاركُ العسكريةُ الصغيرة أو الحروبُ الكبيرة هي السبيلَ إلى تحقيق (أو محاولةِ تحقيق) كلِّ المعاني الإنسانية الخيّرة التي طالما صبا أدبُ المثقّف وكتابتُه وفكرُه إليها؟! لنقلْ إنّه سيعاود الإلحاحَ على نبذِ الحروب وهدر الدماء، وسيجدِّد اقتراحَه بإقامة عالم من السلام والمحبّةَ والتآخي والحوار. لكنَّ العالم لن يأبهَ، ولم يأبهْ عبر التاريخ، بكلِّ نداءاته واقتراحاته وآماله. بل سيمضي العالمُ، وقد مضى فعلاً، من حروبٍ إلى حروب، ومن أطماعٍ إلى أطماع، ومن نهبٍ إلى ظلمٍ واستعباد، في حركةٍ تصاعديةٍ فاضحةٍ وفادحةٍ وغاشمة. إلى أنْ نَزَعَ القادرون، عسكريّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً، كلَّ أوراق التوت عن عورات ذرائعهم الواهية نفسِها، حتى قال كولِن پاول، أحدُ أبرز مهندسي السياسة الخارجية للولايات المتحدة بعد حربها على العراق بذريعة وجودِ أسلحةِ دمارٍ شامل: «سيذْكرني التاريخُ بأنّني الرجلُ الذي دافع عن الأكاذيب!»

بجملة واحدة، وبإيضاحٍ بالغ: أنا مع المقاومة والكفاح المسلح لردِّ أو رفع أيِّ عدوانٍ أو ظلمٍ أو احتلالٍ أو سيطرةٍ أو ما شابَهَ من العوراتِ التي نُزِعتْ عنها أوراقُ التوت. ومن دون ذلك فنحن ـ كتّابًا وغيرَ كتّاب ـ سنكون، في عصرنا الراهن، كمن يطالب الثعلبَ بالخوفِ من الأرنب، أو الذئبَ بالامتثالِ لحوارِ العقلِ مع الشاة.

وبتوضيح وتخصيص في ما نحن فيه: أنا مع رجال المقاومة في حزب الله، وأُقبِّل ـ على غرار سماحةِ السيد حسن نصر الله ـ رؤوسَهم وأيديَهم وأرجلَهم التي، بكفاحها وصمودها، قد جعلتني، ولأول مرةٍ في تاريخ حياتي، أجرِّب معنى أن أرفعَ رأسي، بعد أن اعتقدتُ، لطولِ ما طأطأتُه منذ ولادتي، أنّ العرب ـ في علم الشعوب والأجناس ـ يولدون مطأطئي الرؤوس ذلاً وضعفًا وجبنًا وهوانًا!

ما من حوارٍ ممكنٍ في عالم الغابة: سيأكل القويُّ الضعيفَ، إلا إذا قوّى الضعيفُ نفسَه ونمّى إمكاناتِه. وهل من كتابٍ سماويّ أَقَرَّ بأن تكون الولاياتُ المتحدة السيدةَ المطلقةَ اليدِ والأمرِ في مصائر الشعوب والبلدان؟! هل من وثيقةٍ أرضيةٍ، أو معاهدةٍ دوليةٍ، أو فقرةٍ في تشريعات الأمم، تقول: «وجعلنا لكم واشنطن الزعيمةَ الأوحدَ في عالمكم، تأتمرون بأوامرها، وتَخْضعون لها؟» هل من تاريخ فكرٍ فلسفي لهذه الدولة أو حكمةٍ عريقةٍ بحيث تُمنح منصبَ الحكم والحاكم؟ لِمَ لمْ تكن الهندُ مثلاً في هذا الموقع؟ اليونان؟ البرازيل؟ طبعًا سنَضْحك من هذه الاقتراحات ومن أخرى مثلها، مهما تضمّنتْ من أسماءِ دولٍ تَمْلك الحكماءَ والعقلاءَ والعراقةَ في التاريخ، لأنّ الجواب البدهي هو أنّ واشنطن هي القوةُ العظمى عسكريّاً اليوم. إذًا، عن أيّ حوارٍ عقلٍ نتحدث؟ عن أيّ حوار حضارات؟! أمْ أنّنا الآن فقط، حين انتصرنا على إحدى أعتى القوى في العالم، نزلتْ علينا الحكمةُ، وهَبَطَ التعقُّل على رؤوسنا؟!

كنتُ أعتقد أنّ الكفاحَ والصمودَ والبطولةَ والاستشهادَ دفاعًا عن الحقّ والكرامة في تاريخنا العربي القديم ليست سوى تلفيقِ مؤرِّخين رأوْا أنّ من واجبهم ـ بعد أن خلا الحاضرُ إلاّ من الضعف والجبن ـ إسنادَ روح العربي وإيهامَها بأكاذيبَ عن ماضٍ مجيد. كنتُ أعتقد بذلك كَي لا نقع في اليقين بأنّا خُلِقنا كذلك؛ فما من عربي، مسؤولٍ أو غيرِ مسؤول، تقول له إنّ بإمكان العرب الانتصارَ على الكيان إلاّ واقترح على الفور نقْلَكَ إلى مستشفى المجانين!

أنا واحدٌ من عباد الله الملايين، على امتداد الأرض العربية، كدتُ أوقن أنّا خُلقنا كذلك. لولا الكفاحُ الإعجازيُّ لأبناء فلسطين، والصمودُ الخارقُ لأبناءِ لبنان، والمواجهةُ الأسطوريةُ لرجال المقاومة **الإسلامية** في حزب الله

غابرييلا بوليسوڤا

عبثٌ إسرائيلي متعمّد في منزل في بليدا

ثَبَّتُّ صفةَ «الإسلامية» ردّاً على ملاحقتي، منذ الثاني عشر من تموز وإلى اليوم، بالتساؤل الأميركي الصهيوني الذي عُمِّم علينا «أنتَ تَدْعم المقاومةَ الإسلاميةَ رغم أنّك مسيحي؟» وأوردتُ تلك الصفة عمدًا ـ إذ هي ثابتةٌ أساسًا ـ لأتساءل من دون مماحكة وأدلجةٍ ولغوِ تنظير: لو كان رجالُ المقاومة من الحزب الشيوعي اللبناني مثلاً، أما كنّا جميعًا سنُطارَدُ بجرعة السمّ الأميركية «أنتَ تؤيِّدهم رغم أنّهم شيوعيون، كفرة، لا دينَ لهم ولا هدف سوى مقاومة ديننا وإتْباع منطقتنا العربية بالصين وكوبا وفنزويلا؟» ولو كانت المقاومةُ الوطنيةُ في لبنان مسيحيةً، أما كانت ستصل إلى منطقتنا على وجه السرعة جرعةُ السمِّ الأميركية تَزْعم الخوفَ على دين المنطقة العربية الإسلامي الحنيف واحتمالِ إلحاقِ المنطقة بالمركز البابوي في الفاتيكان؟! أو لو كان المقاومون ناصريين، أو بعثيين، أو من الإخوان المسلمين، أو حتى من المستقلّين الذين لا لون لهم ولا حزب ولا انتماء، أما كانت الإدارةُ الأميركيةُ عَمّمتْ تساؤلَها المسموم «أنتَ تدعم المقاومة الإسلامية رغمَ مخاطر نزع الصفة والهوية والانتماء عن العربي؟!» وهكذا دواليك، ستَعْمَل واشنطن على مبدإ: «وجعلنا لكلِّ انتماءٍ عربيٍّ ناهضٍ مقاومٍ داءً يَنْخر فيه!»

من النافل التأكيدُ، ومعاودةُ التأكيد، على الأسى على تدميرِ لبنان وتهجيرِ الآلاف من أبنائه وهدمِ المساكن والبنى التحتية ـ ذلك الفعل الهمجي الصهيوني الذي يعادل كبرى الجرائم في التاريخ البشري بَيْد أنّه، حتى في هذا الشعور البدهي، أليس من المفجع ألاّ نسألَ **عَمَّن** دمَّر وهَجَّر وارتكب المجازر؟! إنَّ أسخفَ وأغبى ما يُمْكن أن نماحِكَ به (حتى لمجرد المماحكة والثرثرة الفارغة) هو أنّ نعتبر أَسْرَ الجنديَيْن الصهيونيَيْن علّةً وسببًا لكلِّ هذا التدميرِ والقتلِ والإبادةِ الهولاكية.

لقد أُترعَ الأدبُ العربي والفكرُ العربي، منذ نحو أربعين عامًا، بحسِّ الفجيعة وشعورِ الألم وأُتخمتْ أدبياتُ القوى والأحزاب السياسية بالآثار والدلائل المروِّعة المحبِطة لنا جرّاءَ هزيمة حزيران. وامتلأتْ دنيا العرب بظلالِ الهزيمةِ ودلالاتِها وذيولِها، إلى أن باتت تلك الهزيمةُ النكراءُ علامةً مميّزةً مدوّنةً على البطاقة الشخصية للفرد العربي. أهلكتْنا تساؤلاتُ الغربيين عن سرِّ التخاذل العربي إزاء الكيان الصهيوني إنْ كنّا فعلاً ـ كما ندَّعي ـ أصحابَ حقٍّ في فلسطين أو في الأراضي العربية المحتلة. وأطفأ تساؤلُهم كلَّ بصيصِ ضوءٍ

قتل الذائقة!

في عيوننا حين يَصْرخون «ولِمَ لا تنهضون؟!» أفحين يَحْدث، ولو لمرةٍ استثنائية، أن نَنْهض، نتزاحمُ ونتدافعُ بالمناكب وذرائع الحجج وسَقْطِ الكلام في ما إذا كنّا على حقٍّ أم لا، وفي ما إذا كان ما كان يمكن أن يكونَ على نحوٍ آخر، وفي ما إذا كان النصرُ يستحقّ خسائرَ الأرواح والممتلكات و... و... إلى آخر الحروب التي نشنّها ـ نحن هذه المرةَ ـ على انتصارنا لمرة واحدة؟!

مَنْ تراه، في دنيا الآدميين الأسوياء، إذا ما اعترضَتْه مع حبيبتِه عصابةٌ من رجالٍ أشدّاء يَبْغون اغتصابَها . مَنْ تراه يتأمّل في الموقف ثم يرجوهم التريُّث قليلاً، فيختلي مع نفسه ليَطْرحَ ويَجْمعَ ويَضْربَ، حتى إذا ما تبيّنتْ له استحالةُ الغلبةِ في مواجهتهم، قال لهم: «تفضّلوا، اغتصبوا، لأنّ ميزانَ القوى ليس لصالحي أبدًا»؟ إنّ غريزةَ الوجود الآدمي تأبى ذلك، إلاّ إذا كانت الهزائمُ والانكساراتُ والاندحاراتُ ـ عبر مئات السنين الماضية ـ قد انتَزَعَت منّا غريزةَ الدفاع عن النفس، وأحلّت مكانَها العقلَ والمنطقَ والحسابات!

رغم ذلك، فمِنْ نِعَم اللّه، وفَضْلِ رجال المقاومة في لبنان الذين أَحارُ في توصيفهم لاستبسالهم وإبائهم وصمودهم، أنّا انتصرنا؛ أنّا تذوّقنا طعمًا غيرَ الهزيمة التي صارت ذائقةً عربيةً بامتياز؛ أنّا بِتْنا في مصادفةٍ تَجْمعنا مع المتقدّمين قوة عسكرية واقتصادية وسياسية في العالم بأسره، نستطيع أن نبُشَّ وتلتمعَ عيونُنا بهجةً بعد طول اختباءٍ في الجحور كالفئران.

ورغم علمي أنّ نصرًا عسكريًا واحدًا كالذي تحقّقَ في لبنان لن يمحوَ انكساراتِ تاريخ الهزائم من حيواتنا؛ ورغم علمي أنّ هذا النصرَ العظيمَ سيكون غريبًا نافرًا عمّا اعتدناه وأُكرِهْنا على تجرّعه لسنواتٍ وسنواتٍ حتى صار جزءًا من زمرة دمنا... رغم كلّ ما شاكل من القول السابق، فإنّ غبطتي لا تُحَدُّ، وفَرَحي لا يُقدَّر، بأنّي شَهِدتُ بأمِّ عيني، وساعةً بساعةٍ، على الأرض لا في كتب التاريخ الصفراء، كيف أنّا انتصرْنا، وكيف أنّا بالإمكان أن ننتصرَ لا عسكريًا فحسب، وكيف أنّ من الصحيح الصَحيح قولَ أمل دنقل الشهير «ليس سوى أن تريد،» بعد أن كنتُ خلتُ ـ طوال خمسين عامًا من حياتي ـ أنّ ذلك لا يعدو أن يكون كلامًا إنشائيًا مدرسيًا، وجملاً فارغةً من المعنى في خطابٍ رنّانٍ سخيف، وآمالاً وأحلامًا لا تعدو أن تكون كالسُّكّر الذي يُرَشُّ على الموتِ عزاءً ومواساةً.

دمشق

إبراهيم صموئيل

كاتب سوري